

— كثيرون، وقفوا بحيث يرون الداخلين، واحتشد جمهور غفير على الرصيف ليروا هذا الأديب الذي بُعث بعد أربعين سنة، والذي دأبت الصحف عدة أيام متوالية على الكتابة عنه. واستعد المصورون لاستقباله وتصويره في القاعة الكبرى بآلاتهم ومصابيحهم القوية.

ثم أقبل أحد الشبان يعدو، وقال: «جاء الأستاذ»، فساد السكون وانقطع حتى الهمس وتعلقت الأنفاس واشترأبت الأعناق، واتجهت العيون إلى الباب لرؤية هذا الذي كأنما قام من القبر. ودخل الأستاذ في الثياب التي أبى سواها، وقد أخذ بذراعيه جميل بك وسعيد أفندي، وأقبل ابنه وراءهم. ولكن الناس لم يعيروا الابن أدنى التفات وإنما كانت عيونهم على هذا الرجل الهرم ذي الثياب العتيقة واللحية البيضاء والجبين المقطب والعين الثابتة اللماعة وإن كانت لا ترى إلا قليلا. وكان قد ثقل عليه ما رأى من ابنه، فألى ليرجعن إلى غرفته. وعرض جميل بك المدعويين على الأستاذ بأسمائهم، فصافحوه واحدا بعد واحد حتى كاد ينخلع ذراعه وإن كانوا جميعا قد ترفقوا به وحرصوا على الاكتفاء بلمس راحته. ولم يبد عليهم ما خشيه ابنه من الاشتمزاز أو الاستخفاف، حين تقع عيونهم على ما هو فيه من الهلاهيل.

وأديرت ألوان الطعام، فكان الأستاذ يسأل عما يعرض عليه، ما اسمه؟ وكيف يصنع؟ ولا يتناول إلا بقدر. وكان المدعوون في أول الأمر يحدجونه بعيونهم، ولكنهم ما لبثوا أن انصرفوا إلى الطعام والحديث. ولكل شيء آخر — انتهى الأكل وبدأت الخطب والقصائد والأستاذ مطرق كأنه يصغى، وكان يهز رأسه من حين إلى حين كمن سره شيء — أو ما يسمع.

وانتهى هذا أيضا على طوله، فهمس جميل بك في أذن الأستاذ: «ألا تحب أن تتفضل بكلمة ترد بها عليهم؟»

فقال الأستاذ مستغربا: «أنا؟.. أقول كلمة؟.. أرد على ماذا؟ الحقيقة أنى لم أكن مصغيا.. لم أكن مصغيا.. لم يكن بالي إليهم».

فذر جميل بك — فما كان يتوقع هذا — وقال: «ولكن يا أستاذ. لابد من كلمة.. لا نستطيع أن نقول لهم إنك لم تكن مصغيا إلى كلامهم.. أرجو يا أستاذ.. كلمة شكر قصيرة.. القليل منك كثير».

فهز الأستاذ كتفيه، وقال: «إن هذا غريب! لقد كنت أفكر في ليلة قضيتها في كهف..».